الأستاذ خلف محمد نجيب
المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية
بوزريعة

دور المادة الأثرية
في تسهيل فهم التاريخ

لقد ظل المؤرخون ولمدة طويلة من الزمن، يتخبطون في رواية تاريخ الأمم، وخاصة سيرها في الحقبة القديمة و في القرون الوسطى. وظلوا على جهل شبه كامل، بحضارة ما قبل التاريخ.

ان التاريخ القديم والوسيط[1]، ظهر على شكل روايات وأخبار وقصص وحكايات وأساطير، يقترب بعضها من الحقيقة، ويبتعد البعض الآخر عنها. منغمسا في الحدس والتخمين، كأسطورة تأسيس قرطاج، وخاصة الجزء الذي يصف فيه النص التاريخي شراء قطعة الأرض التي ستقام عليها المدينة والذي مازال يدرس في مدارسنا وثانوياتنا وجامعاتنا بهذه الصفة، حيث تقول الرواية أن الأميرة عليسة، اشترت من عند شيخ قبيلة بربرية قطعة من الأرض مساحتها كمقدار جلد ثور. عمدت عليسة الى قطع هذا الجلد الى أشرطة رقيقة كالخيط، أحاطت بها مساحة كبيرة من الأرض استغلتها في انشاء قرطاج[2]. فالراوي يظهر لنا في هذا النص مدى دهاء عليسة ومدى غباوة الأمير البربري الذي باعها أرضا بقدر جلد ثور، وأخذت هي هذه المساحة الكبيرة.

ان مثل هذه الخرافات والروايات غير المحققة، موجودة بكثرة في مصادرنا التاريخية، فكتب "المسعودي"، و"ابن عبد الحكيم"، و"ابن الأثير"، وغيرها مليئة بالخرافات والروايات المبالغ في تحديد الأرقام والمساحات المبنية.. الخ، وبقي المنهج التاريخي على هذا المنوال، الى غاية زمن ابن خلدون، الذي حاول تقويم بعض الأمور وتصحيحها[3]، فقد وجد قصة الغول الذي كان يخرج في الليل قرب منارة الاسكندرية، ضربا من الخرافة، فقد اعتمد منهجاً علمياً لتخقيق المادة النصية التاريخية يرتكز على زيارة أماكن بعض المعارك وإظهار أن مساحة الأمكنة لا تكفي للأعداد التي تحدث عنها المؤرخون، اي استعمال الاستكشاف الميداني لتصحيح التاريخ.

لقد عمل هذا العالم الكبير على نقد ومراجعة كل الروايات التاريخية، التي اعتمد عليها الذين سبقوه، وعمل على تصحيح الحدث التاريخي بإرجاعه الى اطاره الزماني والمكاني..

ومازالت كتابة التاريخ معتمدة على هذا المنهج السردي، حيث يأخذ المؤرخون المعلومة من المصادر التي سبقتهم، بما فيها من روايات وخرافات، يعتمدون على العنعنة[4]، وما تحمله من مبالغة واخطاء في بعض الأحيان، حتى ظهر علم الآثار الذي اعتمد منهجا جديدا فعالا، وفرض وجوده كعلم، بقوة الفأس والمعول ودقة الفرشاة ودقة المجهر، واستعمال المختبر في شتى المجالات[5]، الأمر الذي مكنه من الوصول الى الحقيقة المجردة، العارية من كل لبس، والتي عادة ما يطمئن اليها العقل العلمي.

لقد اعتمد علماء الآثار ومازالوا يعتمدون، على ما جاء في المصادر المطبوعة والمخطوطة من شهادات واخبار وروايات وحتى من أساطير، وعملوا على تحقيقها وتصفيتها وغربلتها مما يشوبها من الأخطاء.

ان الرواية بل الخرافة البعيدة عن الحقيقة، قد يجد فيها علماء الآثار بعض الرموز او الأدلة التي قد توصله الى وضع اشكالية أو طرح بعض الأسئلة او تحديد الموضع الذي جرى فيه الحدث[6]، هذا الموضع الذي سيقدم لهم إن أجريت الحفريات معلومات جديدة، وشواهد مادية يصحح بها التاريخ. حيث بهذه الطريقة تمكن علماء الآثار من تحديد موقع "pompée" الذي غمرته حمم بركان الـ"Vesume" عام 68 ق.م وموقع مدينة "سدراتة" بالجزائر التي غطتها الرمال بعد أن نضبت المياه الجوفية في جهتها.

إن عمل الاستكشاف والتنقيب عمل شاق، طويل النفس، مليء بالمفاجآت، فقد ينكشف لك في يوم من الأيام في مكان من الأمكنة التي تستكشفها رأس عمود أو حجرا من قبر أو حجرا يحمل كتابة أو نقشا أو قطعة حلي، أي أن عالم الآثار يعثر على الدليل المادي المؤكد أن هذه البقعة من الأرض أو تلك قد عاشت فيها جماعة من البشر أو قبيلة أو شعب، لمدة معينة من الزمن قد تكون طويلة (آلاف السنين) أو بعض القرون، أثرت على مجريات تاريخ المنطقة رغم أن أثرها قد انطمس، لعامل من العوامل كما هو الحال بالنسبة لـ"pompée" و"سدراتة"[7].

والمثال الذي يمكن أن نقدمه هنا هو الكيفية التي اكتشفت بها سدراتة حين تمكنت العالمة السويسرية الشهيرة، في بداية القرن السابق من اكتشاف موقع سدراتة، اعتمادا على معلومات قليلة، استقتها من بعض المخطوطات ومن سكان المنطقة، تمكنت من هذا الاكتشاف العظيم، بعد عدة حملات استشكافية واستطلاعية، استعملت فيها مختلف الوسائل التكنولوجية المتاحة انذاك كالطائرة والصور الجوية[8]، الخ، وقامت

بحفريات في أجزاء من هذه المدينة، مكنتها من الكشف على جزء من مخططها، ونماذج من ديارها وقصورها، وفنونها وخاصة زخارفها الجميلة، المنحوتة على الجص الذي مازال بعضها معروضا الى يومنا هذا في متاحف الجزائر وفرنسا.

إن علم الآثار كشف على جوانب عديدة من حضارة الجزائر، ولولاه لظل البحث التاريخي يعتمد على الحدس والتخمين.

كما ان الحفريات العديدة التي أجريت في وادي النيل وفي بلاد الرافدين هي التي مكنتنا من التعرف على كنوز الحضارة الفرعونية وعلى المساهمة الأساسية للعراق في الحضارة الإنسانية.

إن علم الآثار، هو العلم الذي يقدم في كثير من الأحيان، الدليل المادي للحدث التاريخي، هذا الدليل يؤكد صحة الحدث، فهو مرجعيته، كما يوفر هذا العلم أدلة عديدة تتعلق بحياة الإنسان في حقبة ما قبل التاريخ.

فبإمكاننا اليوم مثلا القيام مع مجموعة من الطلبة، بزيارة استكشافية لمنطقة وادي مية بورقلة بحثا عن مخلفات انسان ما قبل التاريخ الذي عاش منذ آلاف السنين على ضفاف هذا الوادي، أو زيارة الرسومات الصخرية في منطقة "تاغيت" أو الهوقار. كما يمكن استعمال صور لها أو أفلام حولها، لتدريس المادة التاريخية بطريقة تجذب التلميذ والطالب لهذا الماضي التليد وتجعله مشاركا في الحدث، بتركه يستنبط من هذه الصور أو المعروضات مادة تساعده على كتابة التاريخ، فيصبح التلميذ مؤرخا لفترة وجيزة من الزمن.

إن المناطق الأثرية موجودة بكثرة بالجزائر، فلا تخلو مدينة أو قرية أو جهة من معلم مهم، أو مكان يزار.

كما يمكن للأستاذ أخذ طلبته الى المتاحف الكثيرة العامة والمتخصصة والاعتماد على المادة المعروضة، لتحريك همة الطالب وتوجيهه الاتجاه الصحيح، فبمتاحفنا المتواجدة في أنحاء البلاد أسلحة وأدوات عديدة كان يستعملها إنسان ما قبل التاريخ بالجزائر، بل هناك حتى الأدوات التي كانت تستعملها الجميلات في ذلك الحين، من أقراط ومساسيك وأمور أخرى. فنحن نعرف على سبيل المثال أن جميلات مصر كن يتزين ويضعن من مواد الماكياج والعطور أمورا مازالت جميلات هوليود تستعملها الآن.

ولابد أن نظهر للطالب لتشويقه ولتحبيبه المادة التاريخية، أن عالم الآثار كمفتش شرطة يبحث في أمر من الأمور، يعتمد على كل الشواهد المادية صغيرها وكبيرها، جامعا للأدلة التي هي بالنسبة له أجزاء صغيرة من بولز pulze الحياة الإنسانية واضعا بعضها جنب البعض، فهذا رأس حربة، وهذا جزء من إناء فخاري[9]، وذاك عظم حيوان، أو بذرة شجرة أو زهرة، أو سن حيوان، وهكذا دواليك، مقدما اكتشافاته، لغيره من ذوي الاختصاص، باحثا عن اشكاليات وأسئلة جديدة أو عن أمور مازالت مجهولة ليدخل بها حفرية جديدة تقدم له أدلة ومادة علمية يصحح بها بعض الأخطاء التاريخية أو يحقق بها نواحي مازالت مجهولة عند الباحثين[10].

إن أستاذ مادة التاريخ، لابد أن يعيد الطالب دائما وابدا للإطار الزماني والإطار المكاني، بأن يقدم له نماذج من الحياة اليومية لزمن الحدث، حيث أن البرامج في الدول المتقدمة عادة ما يدرّس فيها للطالب درسا من تاريخ الأحداث السياسية يليه آخر عن وجه من أوجه الحياة اليومية لهذا

يتمكن الطالب من تصور الإطار الزماني والمكاني للحدث السياسي أو الحربي المدروس، كما يتحقق لنا هذا الهدف بالقيام بزيارة المتاحف، والمواقع الأثرية، وباستعمال الصورة، والأشرطة السينما توغرافية.

فبإمكاننا اليوم اذا زرنا متحف الجيش مثلا أو متحف المجاهد برياض الفتح، التعرف على تفاصيل عديدة، عن الثورة التحريرية المباركة، وبإمكاننا أيضا ان نتعرف على معروضات متاحف طوكيو، لندن، باريس أو البحرين بالاطلاع. وبالإبحار في الانترنيت، نتمكن من تقديم هذه المعروضات النفيسة عن المتاحف للطالب في الثانوية أو الجامعة وحتى في المدرسة الإبتدائية.

إن علم الآثار اذن هو ملتقى العلوم كلها، فللوصول الى الحقيقة يعتمد عالم الآثار على مخابر وآراء علماء في اختصاصات مختلفة[11]. وللتعرف على أوجه الحياة المختلفة لحقبة معينة مثلا "الجزائر في فجر التاريخ"، فإن عالم الآثار، بعد اجزاء الحفرية، يقدم مكتشفاته المختلفة لذوي الاختصاص، فالعظام للأطباء ومخابر التاريخ، وبذور النباتات وأوراقها وطلعها للمختصين في هذا المجال وهكذا دواليك.

ولكي نجعل الطالب يهتم بالمعلومة التاريخية، يجب على الأستاذ احيانا ان يشرح له الكيفية التي وصل بها علماء الآثار الى هذه الحقيقة. فنحن اليوم، نعرف الكثير عن حياة سكان الجزائر في مرحلة ما قبل التاريخ، بفضل الحفريات، والاستكشافات التي اوصلتنا الى الرسوم الصحراوية التي يعود تاريخها الى آلاف السنين 8000 سنة لبعضها.

إن رسومات ناحية "تاغيت" بالزاوية التحتانية مثلا، تعود بنا الى آلاف السنين ق.م، الى زمن كانت فيه الصحراء الجزائرية تقطنها حيوانات،

كالماموت، وحصان النهر، والنعامة، الخ، وكانت مغطاة بغابات خضراء من النوع الاستوائي وتشقها انهار كبيرة وبحيرات عظيمة[12].

إن زيارة هذه المنطقة قد تمكن الأستاذ والطالب، من مشاهدة الأدلة المادية المؤكدة للحياة في هذه المرحلة. فهناك الأوجه المختلفة للإنسان، مشاهد صيده، وملبسه ومأكله وسلاحه، والإطار المكاني الذي كان يعيش فيه.

إن الكثير من المعلومات التي اعتمد عليها المؤرخون لكتابة تاريخ المغرب القديم والمتعلقة بالعادات والتقاليد والديانة والثقافة، والأوجه المختلفة من الحياة الزراعية والحرفية، قدمت من طرف علم الآثار، لقد تمكن علم الآثار إذن من سد ثغرات كثيرة في المنظور العام للتاريخ.

إننا اليوم نستطيع استعمال احدث وسائل الإتصال، للحصول على الصور والتقارير من جهات بعيدة في هذا العالم، في اقصر وقت ممكن كما يمكن للباحث تبادل المعلومات واستعمال مواقع لنشر ما تحصل عليه من نتائج.

إن المدرسة الأثرية الجزائرية مازالت شابة، وبلادنا مليئة بالكنوز الأثرية برا وبحرا، فلمعرفة تاريخ البحرية الجزائرية، والتجارة، والزراعة، والحرف، في حقبة معينة فبإمكاننا اليوم اجراء بعض الحفريات تحت سطح البحر في المواقع التي غرقت فيها السفن، منذ عهد الفنيقيين الى يومنا هذا، وباستخراج بعض هذه السفن وما تبقى من السلع التي كانت محملة بها سنتعرف على أوجه مختلفة من تاريخ الجزائر.

الهوامش

1) الدكتور رالف لننغتون: شجرة الحضارة، وقصة الإنسان منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث، ترجمة احمد فكري، القاهرة ص10ويتبع.

2) انظر كيف تمكن عالم الآثار، سانتاس بول من أن يقدم الكثير من المعلومات حول تاريخ تيبازة في العهد البونيقي.

voir, Cintas. P, Fouille pannique à Tipaza, Alger,1949

3)محمد حسن عبدالله، اساطير عابرة للحضارات، الأسطورة والتشكيل، القاهرة سنة 2000 ص7 ويتبع.

4) كما هو الحال في كتاب ابن عبد الحكم وابن الأثير والعديد من المصادر الأخرى.

5) Daniel Doufournier, Recherche sur la signification et l'interpretation des resultats des analyses chimiques sur les poteries anciennes, éléments moyens et mineurs, CNRS. 1976

6) Paul Courbin, qu'est - ce-que l'archéologie, Payot, Paris, 1982 p159.

7) فوزي عبد الرحمان الفخراني، الرائد في فنون التنقيب في الآثار، جامعة قار يونس، ليبيا، 1978.

8) Jaques Daniel. Manuel d'archéologie aèrienne, Paris, 1978 p99 et s

9) Daniel Dufournier, op cit, p2 et s

يجب على الباحث الاطلاع على هذا الكتاب لمعرفة المجالات الواسعة التي يستعملها علم الآثار للوصول الى الحقيقة.

10) Francois Djindjan, méthodes pour l'archéologie, Paris, 1991

11) فوزي عبد الرحمان الفخراني، الرائد في فنون التنقيب في علم الآثار، ص9 ويتبع.

12) انظر حول المناخ والنباتات والحيوانات في تلك الحقبة، كتاب محمد سحنوني، ماقبل التاريخ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 20.4.

الإحالات

1) الدكتور رالف لننغتون: شجرة الحضارة، وقصة الإنسان منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث، ترجمة احمد فكري، القاهرة،

2) فوزي عبد الرحمن الفخراني، الرائد في فن التنقيب عن الآثار، جامعة قار يونس1978

3) محمد حسن عبد الله، أساطير عابرة للحضارات، الأسطورة والتشكيل، القاهرة سنة 2000

4) سحنوني محمد، ما قبل التاريخ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1984.

1) voir, Cintas. P, Fouille pannique à Tipaza, Alger,1949

2) Courbin, P, qu'est - ce-que l'archéologie, Payot, Paris, 1982

3) Dassié. J. Manuel d'archéologie aèrienne, Paris, 1991 p99 et s

4) Dufournier Daniel, op cit, p2 et s

5) Djindjan, F, méthodes pour l'archéologie, Paris, 1991

6) Doufournier Daniel, Recherche sur la signification l'interpretation des resultats des analyses chimiques sur des poteries anciennes, éléments moyens et mineurs, CNRS. 1976